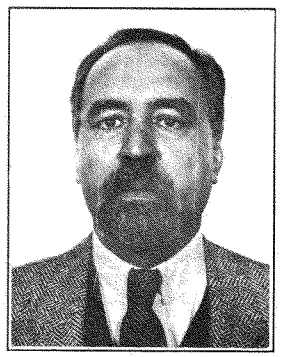

أحمد المديني

غبار الأيام
أو
نصٌّ في الزّوال

كمن هو عائدٌ من حُلُم أو ذاهبٌ إليه أو ذاهلٌ عن نفسه بين هذا وذاك أي كمن ليس قادراً أن يقبض بعد طول تطواف. الأعلى بقيّةٍ من وَهْم هو نُتفٌ من تخيّلات متعرجة حين سعيت إلى رحلتي برقت قدّامي وإذ أحسب أنّني أنتهي منها أنّها تنتهي منّي أكاد لا أجد بين البداية والنهاية سوى كائنٍ وُجِدَ جسداً فذاكرةً وخيالاً بالأمس وها هو ذا ينظر أمامه على صفحة بيضاء فيجد أنه تحوّل إلى شكلٍ مرسوم من خطوط حائلة ما أبهج ألوانها حين رسمت وقت حَلَت الأشكال والألوان أما الآن فعيناه تغيمان كلّما اقترب بصره من لونه يريد أن يأخذه إليه كمن هو موشِكٌ على الإمساك بأعضائه واحداً واحداً فإذا الأعضاء منفلتةٌ شبيهةٌ بنجوم ضلّت مجرّاتها وها هي ذي تائهةٌ من رحلة من ملايين السنين الحقيقية وليس الضوئية حيث لا شيء ينير الوجه الذي كان بالأمس مضيئاً وليست الأوردة ما يتخلّله ولا التجاعيد ما يتحفّز لغزوه وإنما هي طرقات بلدان بعيدة في خرائط يمسك بعضها بأعناق بعض حيث المدن وجوه للنظر والصدور مستراحٌ للبكاء فإنّما هي شوارع ما عادت لها أسماء لأنك سمّيتها مرةً واحدةً وأعلنت الاسم هتافاً كي يصل إلى كل الأسماع وتتلفّظ به الشفاه أو تهمس للمرة الأولى والأخيرة فأسماء القلب ليست للتداول والتكرار فهاك وجهه جسده الذي استحال خطوطاً حائلةً فتّش فيهما عن بقايا اسم وعنوان فلن تجد شيئاً لأن ما تتوهم أنك عثرت عليه ليس إلاّ حنين الرغبة تلك الأولى والموغلة تزرعها في جدران ونوافذ تلك الشوارع وعلامات الخرائط لمُدُنٍ باتت مهموسة يمرّ بها اليوم غداً أمس في كل الأعوام المتراوحة بين شظايا الذاكرة وبقايا الجسد وتراه يمدّ يديه وأصابعه تتحرك أمامه صانعةً أشكالاً لدوائر فراغية وهو لا يقصد موضوع أيّ شكل محدّد ولكن التقاط آثار لذكرى أو علامات لضلال وأطياف وضحكات هنا حطّت يوماً أو عبرت فهل تقبض اليد على وردة أو كُرةٍ أو كومة لخيوط متشابكة نظير التشابك العجيب الذي دخلت فيه أيّامك في يوم سلف وآخر تلاحقه من أجل أن لا يتلف كلّ شيء وأملاً في أن لا يضيع واحدٌ من بعض آخر آخر الاحتمالات هذا الذي تراه طوق نجاتك الأخير ولا تجرؤ على تسميته على إعطائه الإشارة واللون ليبقى وحده سرّك المكتوم السرّ ليس له ما يسبقه أو يتخلّف عنه المغلق المفتوح في مطلق التطابق بين جاذبية اللّغز وأقلّ ما يتبقّى من ثمالة لعينيك يوم انزلقتا على طريقٍ منبسط فما إن سِرتِ فيه حتى استيقظ ليمسح إسفلته بالعشب متخيّلاً أنه أصبح برأس والرأس أيضاً معشوشب بعرائش نبتت في حقول هي ملك الطبيعة ولم يطرقها خطو بشر أو هكذا خيّل إليّ فذلك الفرح الذي نطق وقتئذ ما عرفه أحد بنبرته المتسعة حتى لكأنها تصنع الآفاق وتمتدّ فيها من قبلها لم يوجد أحد لم ينطق أحد أيّ روح لن تسكن بعد جسد أحد بعدها فهل تستطيع حقّاً أن تجلب سماءً رحلت عنك حلّقت دقائق أو قروناً فوق رأسك وأنت مهما أمعنت في استيهامك لن تفلح في إقناعها بأن لرفيق الأجنحة اليوم محراباً كما أنّ مُصلّين يفدون من حيث لا يدري أحد لعلمهم سيأتون هم آتون أتوا من الطريق نفسها التي تمسّحت بظلّها أشرفت على الاقتراب وما إن كادت تدرك ما قدّرته مُمْكِنَ نَظْيرتها حتى طَفِقَت تتشقّق فما هذه الأصوات والبيارق وما سرّ هذا الهتاف متفتّحاً مع باقاتٍ تُهدَى وهي تعبر أو شبّه لهم وله وانغرسوا شجراً كي يكبر فيهم مشوقُها وينتظروا عودتها المؤجلة دائماً حتى شوقٍ آخر وقد مضيتِ تلاعبتِ بكلّ القامات والظلال خلفكِ حوللكِ بعد أن رتّلنا وتبتلنا كي نُهَدى لنهتدي صراطك وكي نتعلم كيف تشتعل النّار في الكلام حين نراك نظرات تضرم في الطريق دهشتنا مدفوعة على راحاتنا المبسوطة مثل طلبات للشفاعة فماذا كانت ذنوبك لتطلب التوبة من ولعٍ فتحت له صدرك وتهيّأ أمامك شريعة اعتنقتها ورحت تضرب في الأرض تجمع لها الأتباع عساك تشرئب إلى سماء ظلّلتها أما الأرض فلك بين جنباتها هذا الحنين الشرس يصرخ من رغبة هائمة على وجهها لا تستقر في مكان إلا لتطويه على حدقة من ظمأ على سؤال مطلق

منطلق كالسهم مخترقاً هيكل إجابات مبكرة صفيقة أو متسترة بحياء شرودها المرتهن لوقت له هو الآخر جغرافية مستقلة حدودها هي نبض كل هذا الوقت الذي فات يفوت وتريد على صدى الهلاك استعادته بالمحال استعادتها الصاعقة في فجر يختلي بها حتى لا تصبح كل طريق إلا الطريق إليها فتمسك بها تحيط بك هالة من شغف تسكنك وأنت واحد من جموع قالت ستتفاءل بالورد ووجهها وكلّ شمس هي مقدّمة لحرائق قادمة وليست مطلعاً للنهار وإذا أشرعت أصابعها وفردت مثل الشراع جدائلها فهو استهلال رحيل لن تعرف محطاته وستتبعها وقد تبعتها سواء توالت الفصول أو تقطعت سواء غرست قدميك دون التراب أم بقيت متشبثاً بسحر الانفصال فهي جاذبيتك والانشداد هكذا ترى نفسك نحو جدار عجباً من الحجر تَرى صورتك ثم صورتها ثم تتداخل الصورتان فأيّهما أقرب إليك من نفسك حقيقتك الضائعة أيّهما عبثاً تلاحقه فلا تقبض منه إلاّ على ذكرى ملاحقتك له لأنّه هو سيكون قد غادر بعيداً جدّاً وانطوى وراء آفاق غير مرئية فهذا وَلَغ الأطياف أم الجسد الذي ما انفكّ يراود حاله إمّا بالتّخفّي وراء أجسادٍ أخرى أو بدفعه إلى ما قد يتسبّب في هلاكه ولا تعرف بعد إن كان هلك أم تريد له هذا مصيراً حتمياً عسى أن ينقطع واحدٌ من السُّبُل إليها فتسترجع ما تعتقد الآن أنه ضاع منك أبداً بين طلاوات العمر لا ما ضعت إلاّ أنت وبدءاً منك راح الحجر يتهاوى تلو الحجر وسماء تدفع سماءً لعلّها تغطي ضرائبك فلكأنك تفتش بتدافع له رائحةٌ هي ذكرى خراب أمس ممتدّ اليوم خطوة خطوة يراودك نحو كل الفتن القادمة ويشحذ فيك همّة أن تجمع الشرخ إلى الشرخ قابضاً في يدٍ على حفنة من تراب لا تعرف إن هي مشت فوقه أم هُوَ تَنسمّ نفحةً من شرودها وفي اليد الأخرى ملمح من صورة مشدود إلى ورقة سقطت من شجرة ذات عام لذات خريف فهذه الورقة بعض السّر لتوهّمك أن العالم مايزال بعد موطن أسرار الورقة عندك أثمن من الصورة أثمن منك لأنها من زعمك تجمع كلّ شيء فهي مكان وتحوي الزمان والخلائق كلّها وهو ما تزعمه أيضاً كأن الخلق يمكن أن يختزل مني صورة واحدة هي صورتها هذا الملمح المتبقّي في قبضة يدك ورقة تقول إنك إذا شئت تجعلها أراضي فسيحة تزرعها بالسهول والجبال والأنهار خرائط تقيم فيها ما تشاء من الأوطان تعمّرها ببشريات من مختلف العصور فتختلط الأعمار والحضارات وتتداخل المفاهيم والتقاليد ليصبح الخلط سيّد كل شيء ضارباً الثورات بالسلام بأحداث الشغب بالأعراس أو حفلات الاغتصاب على دويّ طبول ترقص لها الجنّيات وقد تدلّين من أعلى وإذا شئت تركت الكلّ في رقاد هامدٍ وفسحت للشجر أملاً بأن يسود وحده ومن كل شجرة لا تطلب سوى ورقة هي ورقة لتاريخ سرّي تبثّه إيّاها حين تلثمها أو تغمرها بالقُبل أو تجعل الورد اسماً للنداء عليها محذراً كل البشريات من مغبّة الاقتراب منها أو الطّمع في مغازلتها فهي ليست لك أنت نفسك فكيف بالآخرين هذه الورقة ليست إلاّ لنفسها حتى وهي تسمح لك بأن ترسم على خدّها تفاحةً أو حدود مملكة بلا ملك لورقة تفتح العين تفتّق العين تشرح الصدر أو تذكرها كيف فعلت وكيف لك أن تنساها بعد كل الذي فعلت ولك أن تستفسر الصامت والمتكلم فلن تفوز بين الصخر وجدول الماء إلاّ بمزيد من الذّهول لأن الحكاية التي نُسجت لا تحتمل ضبط عناصر التنظيم وحبكتها هي في صميم فوضاها المتقاطعة بعطش يشتد لهبه كلّما نال من الارتواء مداه فما بالك لو ظل عطشاناً كما ظللت أنت تقطع طريقاً بطريق باحثاً عن ذلك الماء السّري الذي جمع بينكما كان يتفصد من جبينك وهو يتلألأ من ساقها يفيض منها حتّى أراك تغرق ويشح ليهيج فيك عطش صحاري الأرض كلّها وها خوفها عليك بعد ذلك الشغف الحريق يحيلها أمامك ورقةً هي ذي تنبت ورقة فتلَمّسها تَبرّك بها وما بها من خطوط هي جداول جارية عُبّ منها واغرق وستراك تراها راقصةً طروباً على حركة أصابع تصعد وتهبط في جسدك بحثاً عن كنز أو سرّ هي مكمنه فأيّ ورقة لغز هذه لفصلٍ أشدّ إلغازاً منها جاءت تسألك تسأل عنه لتحملك إليه وها هي ذي تطرق بابك خضراء خضراء وبكل الألوان تطرق بابك تصلك بنفسك فوق احتشاد الأعمار والحسرات تأتي معلنةً أنها تجلب معها زَهْوَ الوقت في ذروته فتفتّح واخرج من أحراش الذكريات إلى ميقات لحظة ممدودة كالبساط وتعال آخذك الآن حيث وجدتني بالأمس وأضعتني ولن تجدني بعد إلاّ بمشيئتي حين أُصبح الإمكان الوحيد لبحثك المستحيل عن أُلفة الزمن الفائت أوَلَمْ أقل لك إنّك ستندم بسطت انبسطت أمامك ورقة خضراء مثل أزهى عشب في الأرض تأمّلني قلت لك حتى لا تشبع أبداً من النّظر خذني شجرةً كوكباً حنيناً متّصل الوميض ستنسى مراجعك كلّها حين تتمدّد فوق بساطي ستتذكر أنّك ستولد غداً وتبدأ للمرة الأولى لذّة الاكتشاف ستكتشفنا لتحس كأنّ الفصول إنّما وُجدت لأجلنا الفصول تعاقبت وقد انطوينا تحت مسامّها لا يبين منّا سوى خيال جامح له شكل نبض لا نظير لوقعه كما لا نظير لهذا الفصل الذي نعبر لا يشبه كل الفصول يشبهنا وحدنا حين تقلّبنا بين الأعمار والحسرات وحين شرحتُ صدرك أبهجتُ لياليك وضعتُ عنك وزرك الذي هدّ أحلامك في تلك اللّيلة الغريبة إذ طرق بابك طارق غامضٌ فنهضت إليه من جوف تاريخ حمّال أسرار وعوض أن تجيبه لسؤاله عن مطلبه مسألته أو رأيتها فكنت كمن يكذّب بزهو جموحي وفتنة جنوحي إليك فأنا هنا أقمت أو رحلت سيّان هنا الخطو حذو الخطو ولا بد أن تذكر أنها أخذتك بعد الطرق وهي التي أخذتك دائماً ثم قالت سأستحضر لك العمر بالأيام والدقائق بما عشناه وضيّعناه وبالورق الذي يتهاطل علينا في الفصل الذي فتنك دائماً يوم أغوتك شجرة الخريف فالسُّوناتا مايزال

إيقاعها يسري وأعلم أن الخريف ليس نهاية الفصول والأشياء بل هو بداية كلِّ شيء بداية لما ليس له نهاية لما يقع واقع خارج مدار التّوقيت حركة التحديد ميقاته زمنه يستقلّ به يحضر ويمضي متى طاب له ذلك وما ينبغي أن يشتبه عليك الأمر في لونه فهو مخادعٌ خُلّب فانظر ما أجمله رغم أني أعرف أنّك لا تنظر إلا ما خلف ما هو ممتدٌّ على مساحة الرؤية لأنك تريد أن تلتحق بما شاهدته مرّة واحدة وحدك فعلت ذلك وهو شيء مضى لكنك تُصِرُّ كعهدي بك لا لا لم يمض إنها خدعة لم يمض فهي حيلة كي لا يقع عليه بصر كلّ من هبّ ودبّ وتظل قابضاً على الصورة أو وهَمْها وإنّي لأراها تتناسل من نظراتك وأنت سرحان في أن تتوالد بشريةٌ جديدةٌ عبر هذه النظرات والخريف خريفك وحده معلنٌ ميلادها وسأسمعك تحتج بل هو ميلادنا المشترك فما كان خارجنا قبل أن نراه معاً لم يوجد إلاّ بنظرتنا حين عبرنا الشارع ذاك «أرغو» في باريس الخريفية وليس مستبعداً أنه شاهد حاله وقد اكتشفكما إذ خفقت الأغصان في أشجاره وخشخشت أوراق الخريف الحنائية على إثر خطواتكما كأنها تنشد لمقدمكما النشيد الذي تشرّبه المطر ورحت تلثمه رحيقاً فوق خديها شعرها ذراعيها يديها وفي وقت آخر لما صرت ورقة سمعت من أوراق أخرى أنك ما تركت مكاناً كان لنا فيه موطئ قدم إلا وناجيتني فيه باحثاً عن ضوئي سرى وعبثاً تفعل فقد أضعتني أو لم أقل لك بأنك ستندم وأشهدت عليك الفصل الذي به تبدأ كل الفصول وعبثاً تصرخ الآن من حمّى مواجعك هل أنا قادر بعد على التسلّل إلى بدائية الأوراق المترامية فأتمدّد تحتها فتغطيني تنبت فوق ما تبقى من أطراف لجسد تقاسمته البلدان ولأظفر بجسده الورقة نفسها كأنك تراها للمرة الأولى وأنت مفتتن بحنّائيتها في مظهر قدّاس له من قوة الهيبة ما يذهل الأبصار بينما الأسماع تصعد فجأة أشجاراً أشجاراً أشجاراً والسماء تقترب بينما الأرض تصعد إليها متخللةً ما يشبه أصواتاً لا هي بكاءٌ لا هي غناء مثل ألوان نراها في أفق فنحدس في العين دمعة عنيدة ومن الحنجرة صراخاً مكتوماً وعلى اللسان نغمةً فنغمٌ ليُسمع أذانٌ فترتيل لصلوات هو قدّاسك لا تعرف أبداً إن كان الأوّل أم الأول أمّا الأخير فلا يحدث لأنك لن تسمعه أو لأنك حين انحنيت دفعة واحدة ومددت يدك بين أوراق ما برحت نديّة لفحك اللون وارتعشت من قَطْرٍ فات التحقت به لأنك وجدتها هنا وأضعتها هنا وفي كل مكان وهكذا تتشابه عليك الأمكنة كثيراً فالمكان هو وجهها صوتها شغفها الأوّل الذي لا شيء بعده إلاّ أن تواصل وهم أنك لا بدّ واجدها هنا تماماً حين مددت أصابعك واستللت على صدى الخشخشة الورقة عيْنَها وعندها تسربلت بالغابات وتدفقت منك الشلالات صرت سهولاً ومنحدرات هكذا ممتلئاً بالنشأة مفعماً بالتكوين ملتهباً بآخر حريق لم يشتعل بعد في غاباتك عندما تنفلت منها شجرة بين الماء والإسفلت تنفلت بين نوم ويقظة هي عبرت أو أكون أعبر من هذا الانفلات الشارد في هواه بعد أن رحل الوقت ورحنا نستقرئ الحلم على ضفاف الذكرى عسى أن يتهاطل شجرٌ آخر متقدماً جِباهَنَا في شكل غابات بلورية بضوئها نهتدي كلّما ارتعش فينا كلام ما لا يقال ما لا يحتمل أقلّ من قبضة إعصار إلا أن تهبّ من جديد واقفةً لها الشموخ سلام قبل أن يُتلى سحرها آيات على مسامع أرض ترقص تحت وقع شرودها الفتّاك فلا أنفكّ أتعجّب وأغبط الخريف كيف يستطيع الصمود أمام هذه الفتنة ثم أتفطّن أن ديمومته ليست فعل الطبيعة بقدر ما هي تأثير إيحائها له بالبقاء هو الحفز على أن لا يفلت زمن **الزمن** من ذاكرة الذّهول وأن نبقى معاً أنا وهي قابضين على أهبة رحيلنا حيث لا ينبغي لأحد أن يوجد سوانا لأن نجمة سطعت مرةً واحدة ووحدت بيننا أبداً وكل هذا الوقت الذي يمضي محاولةٌ يائسة للّحاق بما سطع فلا هو خبا ولا هو ملء البصر حين تفتح العين والعين من شغف عطش على أمل أن يأخذ الحنين مداه لتذهل كل طريق عن صنوها يخرج النّوّام من نعاس الضجر سرنا بينهم هؤلاء الأحياء كما اتفق لهم وبينا نظرنا إلى داخل أحشائنا أبصرناهم أبصارهم تقيس المسافة والرصيف الآخر حيث نمشي في دهشة العابرين نسمع صدى غربة محبّبة لا يحلو العيش بدونها ولذا يأخذ الوقت عندنا أسماءً مغتربة عن جدول الزمن فنباعد الأيّام أو نقلّص الشهور نقيم مباهج لعام واحد على حساب كل الأعوام فالعمر لا يبدأ إلاّ حين يفترش الجسد جسده مرتقياً ذروة الألم لأن اللّذة لا تصلح بعد إلا للذكرى وما يتبقّى هو فرط الألم هذا لم نكن قطّ نسعى إلى توليف الأسباب لحدوثه فهو بانتظارنا دائماً في مفترق اللحظة التي تلي اللحظة يعسكر على مداخل شغفٍ يقتات منّا ونحن نعطيه المزيد كي لا يفنى متشبثين بمنفانا في إرادة الذّهول ودهشة الآخرين لا تتراجع أمامنا حين يروننا لا نبالي بصفاقة عيشهم وسباتهم كي يموتوا أغبياء وخنازير بلى تتراجع حين نقرر الخروج من لامبالاة عابرة فنشرع في القهقهة وترقيص أيدينا في الهواء كما لو أننا نلعب بمشاعل وعيوننا تثقب مثل الرصاص الأجساد البضّة أو المتلاشية لنراهم أو نتخيّلهم يتساقطون مثل الذّباب فهذه ذُبابة ذكر ذبابة أنثى ذكر فذكر فأنثى يتساقطون مستغيثين بنا نحن معاً وحدنا نبقى وقوفاً أو لعلنا نرقص نحلّق نحن جاذبية الأرض فاكهتها التي لن يقربها الذباب بشرٌ منذُورٌ لموت أعمى يسحقهم تفوفاً لموت أعظم من أن يستحقّوه إلى أن تقولي بالصمت كفى سأترك لهم المواقع الآسنة طاويةً باريس بين فخذي باردةً فتحتقن لاهبةً فأحرق وتحترق البلدان إذ أتقدّم فيها لا تراني زاحفةً تتقدمني الأشجار ودارِسُ الديار وجسدك كيف أضيّعه وجهك أين أضعه في كثافة نسيان لا يأتي قلت لها هل نطقت باسمك يوماً حقًّا هل افترشنا جسدينا طعمنا من عطب هذه المدينة أم أننا إنما جعلنا من العادة رحيقاً يمتصه نحلٌ عابر أم أننا في النهاية لا نملك طاقة القناعة كما

يفعل كل الذين يعودون مساءً إلى بيوتهم ولا يبكون على جثثٍ كانت قبل دقائق تشغل مكاتب ومقاهي نمر أمام باحاتها حين ترحل الجثث ويجنّ اللّيل مع جنوننا مقهقهين أقول لك تأمّلي الآن جمال هذا الفراغ تشمّمي عبير هذا الصمت انظري إلى الكراسي في تراكمها كيف تحتفل بالخواء تطاول بنيانه وما العمران إلاّ ضرائب والخلائق الخارجة من الأنفاق العائدة عليها المتناسلة داخلها أرانب وخنازيرُ وقد آن الآوان لتختزل هذه المدينة من نظرة إلى الوراء حين فتحت النافذة خلسة من ليل متأخر حابساً في عصبي رعشة تلك النظرة فوجدتها هي الضوء والشجرة حنّائية اللّون وبقية تغريد لطيور عبرت من هنا في شكل حلقة قُزحية الماء فاستطالت يداي لتغوصا بجمعهما لتمتلئا كي أشرب وكلّما بللت حلقي اشتعل عطشتي والنّار إلى اليوم تغلي في جوفي بينا هي حذرتني من غواية الماء فلم أحفل إلا بالاغتراف من صهاريج مَدّدِها ولا وطَرَ لي منها إلا في انفلاتها البيرق يسطع في غرفٍ متنقّلة تنقّلنا بين مُدُنٍ مُعارةٍ تُسلِمنا من مداخلها إلى أسرّة سرير باريس الرمادية حين دخلتها في يومي الأوّل تشهق فحولة الشاوية من عضلي فقادتني بل اصطادتني شقراء حلمت دوماً بأنها في انتظاري اَلهتني عن شقراء أخرى تركتها هناك بعد أن عبثت الأيّام بمواجدنا وأخفقت تمائم **فاس** ولم تنفع ابتهالات **زلاغ** ذلك الجبل الشامخ لا أطُولُ قامته بمقدار فيما وجدتني في ساعة من رماد أندسُّ في فراشها لأختبر تلك الفحولة وأكشط من جلدي بعض ذاكرتي فإذا هي الخيل يسبقني صهيلها لا أعرف هل يصعد من السرير أم يهبط من السقف أيّ سقف أنا خفت أن تكون السماء انشقّت أنصافاً وتدلت نحونا نحوها آذاناً وشفاهاً وصهيلها يذكّر بتلك التحوّلات الجيولَوجية القديمة التي شكّلت الأرض يا ويلي من هذه الأرض ومن امرأةٍ بلاد شوارع مغارات مفازات مداخل بلا مخارج الأضواء والأضواء والعتمات حتى الأخضر النرجسي فالأصفر حتى مطلع الخريف القادم حين أوشك أن أتلمس ببقايا ذاكرتي فلذة أوهامي فلا أسترجع من الشقراء سوى باهت الطعم وما **فاس** إلاّ أشلاء في تقادم النسيان والمشرق يجيئني مغرباً مشعوذاً بالحنين إلى ما لا يطاق ذلك هو الشرق الذي لا أنفصل عنه، إلاّ لأتّصل مع الصهيل يقذفني ويغسلني ليقذفني مجدّداً في معترك الفخوخ كما هي باريس فخٌّ ليلها خريفها النظرة الشاردة لقيامة متقدّمة قبيل الفناء كما هي اللّغة فخّ تعبث بتاريخ التكوين ووهم الخلق بين حروفها فما إن تتوهم أنك قبضت على حبل الكلام أو سرّ السلالة أو حلمة العذراء حتى تتبعثر وقد سفّهت أحلامك ترميك إلى مبتدأ تراب **الشاوية** عليك أن تجمع منه حفنةً تمسد بها وجهك فأعضاءك وتلهث جرياً نحو **وادي العبيد** لتراك كما أنت باقياً في النّخاع لا باحتمالات التحوّل بالتنقل من منفىً إلى منفى ولسانك كلّما مررته بين شفتيك ذُقت طعم الرماد باقياً بالجوع إلى مطلق لن تدركه في عالم يضيق كلّما اتسع ولا يسلس لك قياده إلا في سكينة ليل متأخر فيه القوم نيامٌ والحجر يحنو على الحجر ومن سدُف الظلام تطل صور الموتى كائنات الأساطير يليها طابور المنفيين المبعدين السجناء والمحاصرين فترسم في السكينة المؤقتة دائرة نُحشر وسطها باختيارنا مرتجلين كلاماً لم يقله أحد قبلنا نحن المجاذيب فلا جدوى من أيّ كلام يقوله يفهمه الجميع ينبطح لسماعه بقراءته ونحن نرتجل هنا قولاً واحداً ينعدم معناه إذا تكرر والقول عموماً ما هو إلاّ خارجٌ أو ظلٌّ أمّا الجوهر فيتجوهر في الخفاء وراء أدغال العبارة المستترة ها نحن وسط الدائرة نناوشها مرّةً ومرّة أخرى لتلقّحنا ضد تلوث الكلام السائب قبل أن يطلع صباح يستباح فيه كل شيء وعندئذ أتلفّت حولي وقد تبدّد الظلام فأجد رفقتي قد رحلوا تاركينني وحدي وسط الدائرة طوق هواجسي ولا ملاذ إلا جناح غيابها منشور على صفحة وجهي يشع منه ومضٌ وحده يقيني مترصداً أبواب هذه المدينة مؤجلاً تصفية الحساب معها وإخراج ذخيرتين لإطلاق النار على كل ما تحرك فيها من جحيم ذاكرتي التي ستعرف حين سترحل منها آخر الزنابير والصراصير والخراتيت وفصيلة جديدة من المغيرين العرب المتحدين مع أبناء عمومتهم من العبيد المستأجرين مع هؤلاء وغيرهم ومع فجاجة ما يتكدس من تنافر الأشياء ستعرف كيف تعيد اكتشاف المكان والزمان سأفعل ذلك ولن أفعله إلا إذا كفّ الحنين عن الومض والغياب عن الحضور يجيئني متقطعاً مرافقاً لأشلاء العمر أو مزمناً مقيماً في تنفُس وعندئذ أهديها أيضاً ما تبقّى من استحالة أحلامنا وغور السرّ في ورقة ضائعة سقطت من شجرة أو وقعت من تاريخ تشردنا حيث مأوى شرودك لكي أشمّ أبداً صهد الغياب فأظل مصعوقاً بالمدينة وأنا أستعد لطيّ الأرصفة والأشجار والساحات ومواعيد الجمر لكتابة وصية سريّة رصدت لها ألف زلزال في تلك البلاد كي تُقرأ وقد آن الزوال أجّلناه بالقول نأمل زيفاً بمخادعة الفناء الكامن عند عتبة الزوال إذ لم يبق شيء وإن بقي شيء فهو وشمُ ما كان وبينا أنا على هذي الحال أي قبل أن يجهز الغبار في عصفه الأخير طرق **رجلٌ** باب باريس ولم أكن قد رأيته منذ قرابة عشرين عاماً خلت في مدينة أخرى كانت تسمّى قديماً **الدار البيضاء** فيا لهذا العمر الفاجع الذي أجّل لنا موعداً كنّا ضربناه قبل عقدين سابقين حصدهما جزافاً حراس الأمن والطمأنينة كما ينبغي أن تسود البلاد والعباد ورغم وقوفه أمامي لحماً دماً ضحوكاً بدا بعد شبه أن الحدود خلفه لا أمامه غير مصدق تقطّع الأسلاك وأنا لا أميّز الصورة إلاّ بنقيضها أي لا أدرك الحضور إلاّ بفرط الغياب ملتفتاً إلى موعد بعيد جدًّا حين لم يحضر وقد أخذوه فصارت خيله تضرب في الزنازن وخيلي أنا تجمع بي في المنافي هنا حيث نطفو فوق زمنٍ عَبَرنا فما عدنا نرى أهميةً للحاق به فقد دبغ جلدنا وهذا أثره الكلام مشوبٌ بالصمت الذي يشي بأقل الكلام إذ كيف تقول ما لا يقال وأيّ حوار

متواصل يمكن أن يجري بين من اغتصب الحق العام حقّه الخاص لخمسة عشر عاماً وبين من فرض على نفسه هجرة قسرية كي يحمي الخاص من عسف الهمجيّة ثم ماذا تستطيع اللغة حين تخجل من تاريخ محكم الإغلاق بالأصفاد والحسرة أما الحزن فقد ألفناه إلى حد أننا بتنا نصنّفه أنواعاً وأشكالاً ولذا بدا وجهه رغم أساريره المنشرحة وطلاقة عباراته عسيراً على الفهم ولك أن تتساءل بحق إن كانت عيناه تنشدّان نحو مرئيات الخارج مثل عموم النّاس أم أنهما تنجذبان أبداً إلى الداخل حيث جزيرة الرماد ترسل إليه إشاراتها البكماء وحده لا شريك له في تفكيكها ورسم دليلها الذي كنت أوثر لو أسماه دليل الاغتصاب ولكن ليس بوسع أحد أن يحل محلّ الآخر وما ينبغي بأيّ حال ولهذا فضّلنا وبتواطؤ مُضمر أن نجعل البياض يتولى قراءة الدليل وتأويله مستخدمين الكلمات تنوب عنّا في ما هو تداوليّ نبشرها كالبطاطس ونقشرها مثل اللّوز أو ندغدغها نميمة لذيذة حسبما يقتضيه المقام الذي لا يسعف رغم كل شيء مع هذه المادة الدفينة في القعر تلسع وهيّ ورمٌ غير قابل للاستئصال ولا نجاة إلاّ بأن نزول وفي انتظار ذلك أرسلت إلى باريس إشارات خاصة بيني وبينها وأمسكت **الرجل** من صمته قلت له تعال نخوض في بياض هذا العمران فليس لنا والله بعد اليوم وقبيل الزوال إلاّ الغبار وهذا الكلام بحرنا وبرنا صحراؤنا وواحتنا العري والكسوة الروح الجسد الصحو السبات الحيرة اليقين لي ليس لي مني أكبر من طاقتي أتفرّد به إذا استطعت أن أنحلّ فيه بلا استطاعة يهرب وهو يقبض على الحديد التراب الوجع الدم سائلاً أو متخثراً وجهي وجوهكم السلالات المنقرضة الأخرى المتفشية ما يعبر بين نظرة وانطفائها خطوة وهلاكها القامة قبل أو بعد ظلها الخريف الذي يأتي بعد الخريف العشق عندما يسكن قصيدة تغني حين يهجرها العشق يقبض على الأيدي القذرة عاثت في الأرض فساداً مرقت ذاكرتنا باعت تاريخنا برخص لنلتقي ضرورة في عبارة فات معناها حدودها فوات الأوان حروفها القمر القتل القحط القصف مداها زمان تلاشى آخر منسحق بالتلاشي لذلك نلتقي قهراً قسراً في قضاء الرغبة الدموية التي تقولنا بتوسط من قائل ليس غير فنار الذات جمرتها الدفينة وحممها في الخارج حول فوهة البركان تأمّلوا معي ماذا يمكن أن يحدث لو جمعنا كل كتابة كلام لغات الكون ونفخنا فيها أرواحاً جنّية فعندئذ سنقدّم أجلّ خدمة للإنسانية فنحن سنطلق سراح الجنون وستنطلق مظاهرات من كل قطب إلى القطب المطلق نرشق فيها الشرطة والعسكر والمخبرين بوابل من الشعر من القصائد من المزامير النّصوص الفتّاكة حتى مطلع القيامة طلوع الأدب من محيّاها ينجلي من مشرق الغياب ومغربه ليراني مرات أخرى كمن هو عائد من حلم أو ذاهبٌ إليه أو ذاهلٌ عن نفسه وإذ بي في صولة الغبار أخترق نظرة منها ماردة بنظرة منّي شاردة تقاطعنا وتمازجنا عندما كان الأفق رمادياً والمدينة تحمل أوزاري راحلة في أوهامي فسرنا يداً في يدٍ والكلام معلّقٌ بمحاذاة نهر **السين** مع مطر من قيظ تمّوز بلّل وجهينا متسلقاً مع إسفلت مرآوي يتطلع إليها نحو سوالفها تسحب وراءها انتفضت فجأة ضد عادة العابرين معلنةً أنه العبور الأوّل بدأ نبض صدرها يخفق فوق راحة يدي متأرجحاً مثل عصفور يتعلم الطيران سألتها أين نحن والمطر يهطل شعراً قالت نحن طبعاً في ساحة **السان جرمان** كيف اَوَلا تعرفها أنت المصلوب إلى باريس فأجبت بلى ولكني كمن يوجد هنا للمرة الأولى كمن يحس أن الحياة ستبدأ للتو والطبيعة تنبت أوّل أوردة يا لهولي إني أكاد أقترف ذلك الشيء مرة أخرى وهو ما لا طاقة لي به بعد ولا له فاعذرنني كنتن في ماضي الحاضر أو مستقبل موتي أو ممّن احترقت احترقن بأهوالي ومعذرة لك أنت فقد ذهبت كلماتي دائماً في السحاب فيما أنت قدّامي كمن يخرج من طقس أسطورة رأيتك يحوّل كنيسة الساحة إلى جنائن معلقة تفيض منها وديان من سماق وليالٍ من هجر وعويل تصطخب فتنة أجيال وأيّام العمر كلها مقبوضة محميّة مني جمر لا يعرف بما اصطلى ماذا سيحرق بعد كل الذي احترق من طقس دمار هائم فوق بنيانه الشامخ يعتلي واحدة منها يمسك **سامي مهدي** طرساً بين يديه ليتلو عليّ وعليكم وعلينا «الزوال»: «أقفو العالم/فالأشياء تهتز/وتجري دون ابطاء/وتمضي المدن/الأمكنة/النّاس/البُنى/الأفكار/من حولي/ولا/أقدر/أن/أمسك/منها/أيّ/شيء/فأخليها/وأبقى/ثاوياً/ وحدي/بلا/جار/ولا/أيّ/صديق/آه/ما أسرع ما أبكي/وما أضحك/ما أسرع أن أوجد في الكون/وأحيا/وأموت».